

محنة القول بخلق القرآن

فـ عهد المأمون العباسي



بقلم : الدكتور عبد الشافي غنيم عبد القادر
أستاذ التاريخ الاسلامي بكلية التربية
جامعة قطر

وبدا الفرس يهاجمون العرب والعروبة ويعيرونهم بجاهليتهم القديمة ويتحدثون في مثالب العرب ووفوا الى جانب كل الحركات السياسية والمذهبية المعادية للامويين وكان من المتصور ان تغف هذه الموجة بنجاح العباسيين في الوصول الى الخلافة ولكن مواقف الخلفاء العباسيين الاول من بعض زعامات الفرس التي لعبت دورا واضحا في الانقلاب الذي اطاح بحكم الدولة الاموية والتنكر لجهودهم في هذا السبيل الى حد التخلص منهم بالسجن والقتل زاد النار اشتعالا واخذ الفرس يعملون على احياء ماضيهم القديم وتطورت الامور من مجرد الكتابة في مثالب العرب ونقائصهم الى القيام بحركات دينية وسياسية تمخضت في النهاية عن فكر شعوبي معاد للدولة الاسلامية والاسلام حتى وصل الامر الى درجة الزندقة الفكرية ومحاولة محاكاة القرآن الكريم واحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ووقف علماء المسلمين من اهل السنة والمعتزلة يجابهون ذلك التحدي ويدفعون الفكر الاخائي بالسنتهم وافلامهم ومؤلفاتهم وقد ساعد المعتزلة على مناهضة الشعبية والزندقة تحرهم الفكر في اطار مذهبهم الفلسفي *

وفي وسط هذا الخضم من الصراع الفكري والثقافي وقع خلاف بين اهل السنة او الجماعة من جانب والمعتزلة من جانب آخر وكان الخليفة المأمون العباسي قد نشأ في قلب هذا الصراع الفكري متحررا من كل قيد يفتح عقله وقلبه لمختلف جوانب الفكر للدرجة ان فهمه العلمي جعله يعطى للمعربين والمترجمين في حياته زنة ما يعربونه من الذهب الخالص من التراث اليوناني واللاتيني غير انه كان دائما يقف عند نهاية احدى الحافتين تارة تراه يتقرب الى الهاشمين من العلويين الى الدرجة التي جعلته ينادى بعلي الرضا العلوي ولما لعهد فلما ثار عليه كبار البيت العباسي انتقل الى نهاية الحافة الثانية يؤيد المعتزلة في نظريتهم المنعقدة القائلة بخلق القرآن ولا يقف به الامر الى حد التأييد او التعصيد او الاعتقاد وانما يصل به الامر الى حد ارغام الناس على القول بمثل مقولته مهما صاحب ذلك من الوعد والوعيد والقتل والنفي والتشريد *

وكان موضوع الحوار الذي برز على ساحة الدولة العباسية في عصر المأمون الراي في اصل القرآن الكريم هل هو قديم اذلي اذلية وقدم الله سبحانه وتعالى ام انه آيات محدثة انزلها الله تعالى لمجابهة المواقف والظروف المختلفة التي تعرض لها الاسلام والمسلمون *

وقبل ان نخوض في صلب الموضوع لابد وان نسلم بفرضية اساسية لم يكن هناك خلاف عليها بين اهل السنة او الجماعة وبين المعتزلة هذه الفرضية الاساسية المعترف بها هي سماوية

عرفت الحضارة الاسلامية مدرستين من مدارس الفكر الاسلامي اصحاب الفكر المدرسي من الملتزمين بالقول المأثور وهم من نطلق عليهم السلفيين من اهل الحديث والسنة او الجماعة وهؤلاء يرون في التمسك بالمصادر الاصلية للتشريع الاسلامي خير عاصم من مواطن الزلل واصحاب الفكر الفلسفي من القائلين بمذاهب الاخذ بالرأى والتأويل وهم من نطلق عليهم المعتزلة الذين كانوا يحاولون قياس كل فكر بمقياس العقل في محاولات للتدليل على صحة ارائهم من موقع النيباع الاسلامية الاصلية *

وعلى الرغم مما كان بين رواد المدرستين من خلاف في الفكر الا انها كانا يقفان كمدرسة واحدة في مواجهة المذاهب الدخيلة على الدولة الاسلامية وفي مقدمتها فكر الشيعيين والزنادقة خاصة حين تنحرف آراء هذه المذاهب المتطرفة الى محاولة النيل من المصادر الاصلية للتشريع الاسلامي *

والحقيقة انه لا يمكن تناول موضوع محنة القول بخلق القرآن في عصر الخليفة المأمون العباسي من غير تمهيد للمناخ الفكري في العصر العباسي الاول ذلك المناخ الذي اتاح لهذه الآراء وغيرها ان تخرج الى حيز الوجود فكرا وقولا وتاليا مما دفع علماء المسلمين الى التصدي لهذه الاتجاهات وتفنيدها واثبات فسادها وازدهرت الحركة الادبية والفلسفية نتيجة ذلك الصراع الفكري الذي كان قد بدأ يفتح ذراعيه على الفكرين المشرقي واليوناني واللاتيني واضطر علماء المسلمين وفقهائهم وادباؤهم الى الدراسة والبحث لمقاومة الفكر بالفكر والرد على الراي بالرأى مما أدى الى اثراء الحركة الفكرية الاسلامية بوجه عام *

بدأت فكرة التشيع عند الفرس في العصر الاموي فكرة متواضعة لم تكن تزيد في بدايتها على نوع من الاحتجاج الفارسي على ظاهرة التعصب الاموي للعروبة والعرب واختصاص العرب بالمرافق الرفيعة والمناصب الكبيرة في الدولة ثم اخذت الهوة تزداد اتساعا حينما رأى الامويون الابقاء على الجزية بالنسبة للمعتنقين للاسلام من الفرس وان تظل اراضيهم الزراعية في عداد الاراضي الخراجية ولا تتحول الى اراضى عشرية وذلك خوفا من التنافس الذي بدأ يظهر على دخول بيت المال ولم يشذ عن ذلك الموقف سوى الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز صاحب العبارة الماثورة « دع الجزية عمن أسلم فان الله قد بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جاييا » *

والجو الذي يعيشه يهيئه لتقبل هذه الآراء الدخيلة ولم يكن هناك غبار على المأمون العباسي في أن يعتقد ما يشاء في غير الزام للغير بما يعتقد *

بدأ الخليفة المأمون يفرض فكره على الناس سنة ٢١٨ هـ فكتب الى وائى بغداد استحق بن ابراهيم يطلب منه أن يمتحن القضاة والفقهاء في موضوع القرآن كما أمره أن يأخذ على القضاة عهدا بالا يقبلوا شهادة من لا يقول بخلق القرآن وان يعاقب كل من لم يقل بهذا الرأي ومما جاء في كتاب المأمون « وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الاعظم والسواد الاكبر من حشوة الرعية وسفلة العامة ممن لا نظر له ولا روية ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه أهل جهالة بالله وعمى عنه وضلالة عن حقيقة دينه أن يقدروا الله حق قدره ويعرفوه كنه معرفته ويفرقوا بينه وبين خلقه * ذلك أنهم ساووا بين الله وبين خلقه وبين ما أنزل من القرآن فاطلقوا عليه أنه قديم لم يخلقه ولم يخترعه وقد قال تعالى : « انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » فكل ما جعله الله قد خلقه كما قال تعالى : « وجعل الظلمات والنور » وقال « وكلا نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك » ** الخ *

وقد سار المعتصم على سياسة اخيه المأمون وكذلك اقتدى الواثق بابيه المعتصم ولقى قادة الرأي والفكر وعلى رأسهم الامام أحمد بن حنبل الكثير من صنوف العذاب والسجن مالافاء وأصبح كل عالم أو قاض هدفا لخطر الضرب بالسياط والتعذيب اذا لم يأخذ برأى المعتزلة في القول بخلق القرآن *

وكان أحمد بن نصر من كبار الساخطين على هذه السياسة حتى أنه دعا الى عزل الواثق وجرت بينه وبين أئمة المعتزلة مناظرة أفضح فيها ابن نصر مناظرة وكان مما قاله الخليفة الواثق له ما تقول في القرآن قال كلام الله قال امخلوق هو قال هو كلام الله قال فما تقول في ربك اتراه يوم القيامة قال يا أمير المؤمنين جاءت الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر » فقال الواثق لمن حوله ما تقولون فيه فقال القاضي عبد الرحمن ابن اسحق اسقني دمه يا أمير المؤمنين وأمر الخليفة الواثق بتعذيب ابن نصر غير أن ذلك كله لم يهن من عزمته أو يغير من عقيدته *

ولم يقتصر الامر على العراق والشام بل تعداه الى مصر وكان والى مصر كيدر بن عبد الله يتشدد هو وقاضيه محمد بن ابي الليث في تنفيذ اوامر الخليفة فعزلوا كل من لا يقول برأيهم ووقف تلاميذ الامام الشافعي رحمه الله يحاربون فكر المعتزلة في القول بخلق القرآن بكل ما اوتوا من قوة وشجاعة حتى انهم تحدوا الواثق وقاضي القضاة وأمروا بحذف عبارات كانت السلطة قد كتبتها عند مداخل المساجد المصرية « لا اله الا الله رب القرآن المخلوق » وكان على رأس العلماء المصريين الهاريين فرارا من القول بخلق القرآن الفقيه ذو النون بن ابراهيم الاخميمي وابو يعقوب يوسف بن يحيى البويطي صاحب الامام الشافعي الذي سجن بالعراق حتى توفي سنة ٢٣١ هـ *

ولما اشتد الامر على المسلمين في ذلك العهد ائتمى بعض الفقهاء باستعمال « التقية » انقادا لهم من الهوان والعذاب عملا بقوله تعالى « الا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » غير أنه على الرغم من كل هذه الجهود التي بذلت لارغام العامة على الاخذ برأى المعتزلة الا أن ذلك لم يؤثر على معتقدات الكافة وظلوا يناضلون عن فكر السنة ورأى الجماعة بكل ما اوتوا من قوة الى أن شاء الله أن تنجلي هذه الغمة في عهد الخليفة المتوكل العباسي فابطل ما فعله سلفه ولذلك اعتبر المتوكل في نظر الجمهور أول خليفة عباسي يقوم بحياء السنة *

القرآن والوهية الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من لدن حكيم عليم وانما كان الخلاف حول زمنية وتوقيت التنزيل *

وكان أهل السنة يتزعمهم الائمة الاربعة المجتهدون يقولون باصالة التنزيل وأنه قديم قدم الله سبحانه وتعالى وأن نزوله مفرقا في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعنى حداثة التنزيل ووقفوا يدافعون عن آرائهم ويفندون كل ما يزعمه المعتزلة من حجج ويردون كل نظرياتهم واستدلالاتهم الى كتاب الله وسنة رسوله *

اما المعتزلة أو كما يسميهم البعض القدرية لتزعمهم فكرة حرية ارادة الانسان ونقد الديمومة والاخذ بمنطق الصيرورة فقد كانت فلسفة تفكيرهم تقوم على خمس قواعد اصولية هي التوحيد والعدل والوعد والوعيد والقول بالمنزلة بين المنزلتين والامر بالمعروف والنهي عن المنكر *

والذي يعنينا من آراء المعتزلة في هذا الصدد موقفهم من زمنية التنزيل فقالوا ان القرآن حادث مخلوق نزل في ظروف معينة وليس أزليا يأخذ صفة من صفات الله التي ينفرد بها وهي الازلية والقدم وقد أرادوا بذلك أن يتحرروا من كل قيد على تفسير نصوصه وآياته دون التوقف عند التمسك بظاهر هذه النصوص مغبة الانزلاق في الكفر وفق آرائهم أو الخوض فيما قد تعنيه هذه النصوص من صفات أزلية في الخالق سبحانه وتعالى وقد دللوا على ضرورة عدم المزج بين أزلية القرآن وأزلية خالقه حيث أن ببعض آيات القرآن صفات محدثة لا يمكن أن تتسامى الى الصفات الالهية كالتباین والتضاد في الامر والنهي والوعد والوعيد والوصفية المحدثة كالسمع والتكلم والبصر وهي صفات عرضية جسدية وليست أزلية أزل الله سبحانه وتعالى وكذلك المخاطبية الضميرية الموجهة في القرآن كخطاب الله الى موسى وغيره من الانبياء وقالوا كيف يخاطب الله انسانا قبل أن يخلق وملاحقة بعض الامور المحدثة الى غير ذلك من الموضوعات التي اثارها المعتزلة *

وقد قام أهل السنة والجماعة بالرد المنطقي على كل هذه التساؤلات استنادا الى الكتاب والسنة فقالوا في موضوع التباين والتضاد أن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والوعد بالجنة والوعيد بالنار لا يتعارض مع أزلية القرآن لأن ذلك كله موجود في علم الله الازلي وفي قدرته التي تلازمه سبحانه وتعالى واما حديث المعتزلة في الوصفية فانما يدل على قصور فهم والتزام حرفي بالمعاني المحدثة للالفاظ فليس السمع والبصر والكلام عند المحدثين كالسمع والبصر والكلام عند رب العالمين وانما هي صفات يختص بها المولى سبحانه وتعالى ولا يعلمها أو يدركها الا هو ولولا ذلك لما خر موسى صعقا عندما سمع كلام الله فلو كان كلامه جل جلاله ككلام الاناس لما حدث لموسى ما حدث وأين سمع البشر من سمع الله الذي يسمع دبيب النملة وحركة الاجنة في بطون الامهات وحركة الاسماك في قاع البحار والمحيطات كما دللوا على أن كلام الملائكة انفسهم يختلف عن كلام البشر صفة وصوتا وأسلوبا ولعل ذلك هو السر في ما اعترى رسول الله صلى الله عليه وسلم من خوف ورعب لأول مرة يلتقي فيها بوحى الله وناموسه جبريل *

واما خطاب الله لانبيائه وهم محدثون فلا يعنى اطلاقا حداثة الخطاب لأن علم الله الازلي وقدرته سبقت كل مخلوقاته وتلك نقطة الاساس في الاختلاف بين أهل السنة أو الجماعة وبين القدرية أو المعتزلة *

ولقد بدأت آراء المعتزلة في صفة القرآن تأخذ وضعاً رسمياً في اواخر عهد المأمون العباسي الذي كان تكوينه واصل مولده